



**Maddalena Cisotti-ferrara.- Dhikrayāt shakhṣiyya liḥayātīn ḥamīma bial-maghrib. Tarjamat Mostapha Nachat waRadwān Nāsih (ar-Ribāt: Matābi‘ar-Ribāt Net, 2019), 254p.**

مدالينا شيزوتي فرارا.- ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب. ترجمة مصطفى نشاط و رضوان ناصح (الرباط: مطابع الرباط نت، 2019)، 254 ص.

صدرت مؤخرا الترجمة العربية لعمل الكاتبة

الإيطالية مادالينا شيزوتي فرارا تحت عنوان ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب (*Nel Marocco, Ricordi Personali di Vita Intima*)، في 254 صفحة عن دار النشر الرباط نت 2019، تعريب الأستاذين مصطفى نشاط و رضوان ناصح. وتكمن أهمية هذا الكتاب في تمثل أدب الرحلة النسوي للأرض والناس إبان مرحلة مفصلية من تاريخ مغرب عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وبما أن الاهتمام بالرحلات انصب بالأساس على الرحلات الفرنسية والإنجليزية وبدرجة أقل الإسبانية مقابل إهمال نظيرتها الإيطالية، فقد سار النص الذي بين أيدينا على درب الجمع بين معانين ومشاهدات شخصية، وبين نصوص رحلية سابقة، ومن ثم فهو تعبير عن وقائع تاريخية في صيغة سردية. والجلي أن ترجمة هذا النوع من النصوص ليس بالأمر الهين، بحكم أن المؤلف لست بالمتخصصة أو بصاحبة الثقافة الواسعة، لذا عمل المترجمان بين الفينة والأخرى على تذييل المتن بإحالات توطن الصور النمطية لديها، وتعمل على تصويب الأخطاء التاريخية.

إذن يدخل الكتاب في إطار اهتمام الرحالة الأوروبيين بالمدن المغربية الرئيسية من قبيل طنجة وفاس، والتي تحيل في ذواكرهم على نموذج المدن المشرقية الإسلامية، ومن ثم كانت صورتها مستمدة من سحر الشرق (39، 59)، وظلت طنجة، كما هو الأمر في أغلب الرحلات الأوروبية، تقدم الانطباع الأولي عن المغرب الذي يوحى لأول وهلة، في رأيهم، بصورة البلد المنفتح، ثم سرعان ما يتبدد هذا الانطباع جملة وتفصيلا كلما توغلوا في الداخل.

تتموضع كتابة هذه الذكريات الشخصية في سياق سعي الغرب المستمر إلى استكشاف أسرار الشرق البعيد والممتنع، باعتباره موضوعا يغري بالتخيل والاطلاع، ويفتح الشهية أمام مشاريع السيطرة الاستعمارية، رغم خيبة أمل مادالينا شيزوتي، التي لم تتردد في تدوين المعارف المتداولة عن المغرب ضمن خليط من الآراء والأوصاف والأحكام، المرتبطة في مدها وجزرها بخطاب المركزية الأوروبية الساعي أساسا إلى تبخيس الهويات الثقافية للشعوب المغلوبة. ورغم ذلك يبدو أن الكاتبة تفوقت إلى حد ما في التوليف بين مسارات الأفراد ومسارات الجماعات، من خلال الوقوف على القضايا الأساسية التالية: الأنا المسيحية/الآخر المسلم؛ - التفاوت بين ضفتي المتوسط فيما يتصل بمسارات التحديث والحداثة (44، 93)؛ - العوز التقني المتجسد في صعوبة عبور الوديان المغربية، وانعدام الطرق والقناطر (51، 53، 80)، وهشاشة أساليب العلاج الطبي (56، 232-233)، وضيق مساحة الأراضي المستغلة في الزراعة (66)؛ المرأة والحريم السلطاني (64، 65، 126، 161، 180، 205)؛ الجهاز المخزني على مستوى إعداد المخيم، والنزلة، وتموين المواكب، ولباس المخزن (40-43)، والنظام البريدي (124)؛ قضايا مجتمعية تتعلق بالنظافة والذهنية القدرية (66، 233)، والنظام الغذائي المرتكز على اللحوم (107)، وعادات البيع والشراء، وتجارة التقسيط (106)، واحتكار المخزن للسلع (107)، وانعدام السهرات الليلية والرقص والمسارح والموسيقى (112)، ووضعية اليهود وأهميتهم المالية والصيرفية (195)، ومشكل الحماية القنصلية (134)، وصعوبة نجاح المحاولات التبشيرية (120)...

تناولت هذه القضايا سالفة الذكر باستخدامها لأسلوب يعتمد منطق الثنائيات المعهودة في هذا الجنس الأدبي، إذ نعتت المغاربة بالكسل المرتبط في نظرها بعوامل إثنوغرافية ومناخية (213، 221)، وهو حكم قيمة يرتبط بالنظرية العرقية المتداولة في أوروبا منذ صدور كتاب السياسة لأرسطو (Aristote)، وروح القوانين لمونتسكيو (Montesquieu)، وتوجت بنظرية آرثر دو غوبينو. (Arthur de Gobineau) أما الاجتهاد فهو سمة الأوروبي الحامل للتاريخ مقابل الآخر الذي ينتظر الدخول إليه. ومثل المغرب في نظرها صفات العتمة والتوحش والتشدد والتقليدية بكل تجلياتها مقابل خاصيات النور والتحضر والانفتاح والحداثة التي تمثلها إيطاليا (112). بل ولاحظت أن الزمن المغربي شديد البطء مقابل الزمن الأوروبي السريع (132).

يجمع الكتاب المبني على هذه الثنائيات بين عدة خطابات ذات مستويات مختلفة يتقاطع فيها الخطاب التاريخي-الجغرافي، والخطاب الاثنوغرافي المتسم بالأصوات المتعددة والاهتمامات المتباينة والتجارب المتقابلة. ولا يخرج كلاهما عن إطار المنهج العجائبي وعن مرجعية الاستغراب الرومانسي. لكن رغم تحملها المبالغ فيه أحيانا، فقد سقطت الكاتبة في عدة فلتات من قبيل وصف المغرب بأنه "...بلد بشاعريته الجذابة وبأصالة تقاليده..." بل اعتبرت "...العالم الإسلامي في تكامله... له سحر خاص به، يجذب دائما ولا يمكن نسيانه..." (251).

والثابت أن هذه الذكريات تتداخل فيها مقاربتين إحداهما تتعلق بالكليشيهات والصور النمطية والستريوتيبات التي ظلت الكاتبة تحملها عن صور "المغرب المشرق"، وثانيهما ترتبط بالواقع التاريخي والتشخيص الثقافي الذي اصطدمت بثوابته ومتغيراته خلال مقامها بالمغرب. إذن فالكتاب هو عبارة عن تتبع دقيق لتطور نظرة الآخر الثقافية للمغرب، يزاوج بين المدونات اليومية والرواية التاريخية وغير التاريخية. فهل يحق لنا تصنيف هذه الذكريات في خانة الحكاية التاريخية؟ لا مندوحة أن متون هذا المؤلف اتخذت من الأحداث التاريخية العامة والأحداث التاريخية الخاصة أساسا لها، ووظفت في بنائها السردية صورة كبرى للمغرب برتمته أو صوراً لأشخاص معينين (الزوج، المقري، بناني...) يتحركون بكل سلاسة وأريحية عموديا وأفقيا في الزمن. ولا غرو أنها "رواية تاريخية" تسمح بالتجول في مغرب نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، سعت من خلالها المؤلفة إلى إعادة صياغة مسار إقامتها بالمغرب اعتمادا على الجمع بين الحقيقة والخيال وبين التاريخ والتخييل، إذ لم تتردد في الاستشهاد بأحداث تاريخية سابقة وأعمال رحلية أخرى، وبما كان يروج في مخيلتها من أحلام استعمارية، كلما تراءى لها بأنها يمكن أن تخدم سريان الحبكة القصصية ومنحنياتهما. ولهذا تخلل مذكراتها نسق الدمج بين ما هو واقعي وما هو افتراضي، لأنها اعترفت من الماضي الممتد في الزمان والمكان. فهل لهذه الذكريات الشخصية صلة بالتخييل الذاتي؟ أم أن الأمر يتعلق بالكاتبة الرحالة ما دام عملها بني إن كليا أو جزئيا على تجربتها الشخصية، وعلى أوجه احتكاكها بالمغرب وأهله؟ لقد مزجت شيزوتي بين الحكيم القائم من جهة، على البيوغرافيا الخاصة المرتبطة بشخصها، وبين حكيم مرتكز من جهة أخرى، على استدعاء الخيال لإعادة ملء البياضات والفراغات المتعلقة بتجربتها كما عاشتها في هذا البلد.

وتحيلنا هذه الأسئلة الثلاث على استفسار علاقة التخيل بالذاكرة، إذ عادة ما يقع التمييز بين الذاكرة المعتادة، والذاكرة-الذكري أو التذكُّر، نستحضر الأولى حين يستدعيها السياق أو اللحظة، وتتسم الثانية بعفويتها وبأنها مُشكَّلة من صور لذكريات تمثل أحداثاً فريدة في حياتنا الشخصية. إذن تتخيل الأولى الحدث، وتعيد الثانية استحضاره، ومن ثم فالأولى حسب هنري برغسون (Henri Bergson) هي الذاكرة الحقيقية. وهو الأمر الذي يطرح علاقة الذاكرة بالتاريخ، وعلاقة النسيان بالتذكر، مما يؤكد أن كل كتابة في المحصلة النهائية هي كتابة انتقائية.

ويبدو أن ذكريات الكاتبة تنحو منحى يؤلف بين التخيل ونسبية الحقيقة، لأنها تلملم في طياتها التاريخ والإضافات المرتبطة بالأشخاص، والتي لا يتجلى فيها التاريخ إلا في الألوان الفاقعة والطقس المشمس والعادات والطبائع الغربية والفولكلور العجائبي. وعليه يلتقي في الكتاب التاريخي بالأدبي، والحقيقي بالخيالي في صيغ متداخلة أحيانا ومنفصلة أحيين أخرى، أي أننا نحس ونحن نقرأه أن صاحبه تتمنى أن تحتل إيطاليا هذا البلد وتستفيد من ثرواته، رغم إيمانها المطلق بأنه من نصيب فرنسا، وهو ما يفسر الارتباط الوجداني للمؤلفة بعظمة بلدها.

وعلى سبيل الختم، يمكن القول إن الكتاب الذي بين أيدينا يتسم بالحضور القوي للسؤال الثقافي بحمولاته المختلفة الأوجه والتلويحات في المغرب، ومن خلاله في العالم الإسلامي برمته. وبالتالي الحضور القوي للسؤال الحضاري النابع من الازدواجية الثقافية والتاريخية والطبيعية والدينية... وقد وظفت مادالينا شيزوتي في هذا السياق التخيل عملاً بالمقولة التالية لصاحبها جورج دوبو (G.Duby): "لا بد أن نتخيل دائماً، نحن مجبرون على ذلك ملء فراغ التقطعات التي تعترى شريط الأحداث" (*L'Europe du Moyen-Âge*, 1993)، خصوصاً إذا علمنا أنها دونت ذكرياتها بعد مرور سنوات على عودتها لبلدها، فوجدت نفسها مجبرة في الغالب الأعم على توظيف تخيل متحكم فيه.

محمد جادور

جامعة محمد الخامس بالرباط